صحوة أم غفوة: الجيل الثالث من العبدوبين

مقدمة:

لقد مرت بديار الإسلام دياجير وظلمات، بعضها يمكن إرجاعه إلى بيئة الناس وما ورثوا من موروثات، وبعضها الآخر دخيل ومما ابتدع على مر الأيام وكر الدهور والعصور، وإلى أيام الناس هذه.

ونظرا لاتصال العالم الإسلامي، وعدم وجود موانع جغرافية وحواجز طبيعية تمنع الناس من السفر والانتقال بين أرجائه، ولا في أن يتأثر أقاصيهم بأذانيهم، خصوصا والرحلات العلمية مزدهرة، ومواسم الحج عامرة، فلم يكن هناك مانع من انتقال الأفكار بين أرجائه، خيرها وشرها، المفيد منها والطالح.

وكانت الأفكار تنتقل على شكل موجات، قد تبدأ بؤرها إما في الشرق وإما في الغرب وإما في الوسط. ثم تتسع إلى أن تصل إلى أقاصي الأطراف، فتطعم بعد أن تهضم بخصوصيات الأرض والبيئة، ثم ترتد من جديد متنقلة من حيث قدمت، فتهضم وتحلل وتعاد صياغتها مطبوعة بالبيئة والبشر ليعاد تصديرها من جديد، لكن محورة.

وكان يظهر على مر العصور مصلحون يحاولون تنقية الدين مما شابه من دغل أو علق به من دخيل بنجاحات متفاوتة، إلا أن الطابع ظل يغلب دوما على التطبع، فيعاد اجترار الموروث من جديد وما راكم وإلى يوم الناس هذا.

وقد ظهرت في مصر مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين الدعوة التجديدية العبدوية (نسبة إلى محمد عبده)، بعد أن كان قد لقح بها من طرف شيخه جمال الدين الأفغاني . ففرخت أمثال قاسم أمين وعلي عبد الرزاق وطه حسين وأحمد لطفي السيد وغيرهم.

وكان الشيخ عبده كالأفغاني الذي اقتدى به وتغذى من فكره حتى الثمالة قد واجها بيئة فكرية جامدة، كهوفية المنزع والمشرب، صوفية المحك والمحتد، نابذة للعقل وللتدبر، تواكلية إلى أقصى الحدود، مهملة لسنن التسخير والحياة، وجهتهم بزعمهم الآخرة، إلا أنهم قلما توانوا عن أكل الدنيا بهذه التكأة. بأسهم بينهم شديد، ودعاويهم في مقبوريهم تفل الحجر والحديد.

وادعوا من فرط الغلو اتصالهم بالملأ الأعلى بخطوط هاتفية ساخنة، وتنافسوا في ادعاء القطبية، حتى ادعى كل شيخ طريقة أنه الذي تدور عليه رحى الكون، وأنه ماسك بذراته، لا يعزب عنه منها شيء. وقالوا بوجود أغواث، وأبدال، ونقباء، ونجباء، لا حقيقة لهم في الوجود سوى هذه الأسماء المخترعة.

وكان باب الاجتهاد قد وصد منذ مدة من طرف الفقهاء، الذين قلما حملوا من الفقه سوى هذا اللقب الزور، وحجروا على عقولهم أن يناقشوا أمور الحياة أو الشريعة، ما كان يناقشها الفطاحل في الصدر الأول، واكتفوا من كل ذلك، باجترار معارف لم تعد بذات غنية في دنياهم، ولا أنها كانت توصل صاحبها بأمان إلى الآخرة، ألفها المتأخرون وشرحها الشارحون وحشاها المحشون، تعتمد التلغيز والتقعير وليس التبسيط والتفهيم.

هذا ما كان من سلوكهم، أما معتقدهم، فقد قلدوا فيه إما الأشعري أو الماتردي، في الأسماء والصفات والجوهر والعرض، والجزء الذي لا يتجزأ، والكسب والتفويض، والقضاء والقدر، والقديم والمحدث، والاستواء والقهر،... إلى غير ذلك من قاموس مناظرات المتكلمين زمن أبي الحسن الأشعري في مطلع القرن الرابع الهجري كما سطر وبسط في كتابه "الإبانة في أصول الديانة" وفي: "رسالة إلى أهل الثغر"، وغيرها من كتبه.

وكانت أوربا بعد أن لقحت بحضارة الإسلام في عصر نهضتها، قد شقت الجبال والأنهار وجابت البحار والمحيطات وأحاطت بحضارات المعمورة وسخرتها في خدمتها واستغلتها بالعلم والعقل، وهددت بجرف كل شيء أمامها.

فلما أراد الشيخ عبده أن يجابه ويواجه هذه البيئة التي تربى وترعرع فيها، وهو الشاذلي الطريقة، الذي يؤمن بوحدة الوجود لابن العربي الحاتمي، كما آمن آخرون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخرج يده من قبره ليرد سلام على الشيخ الرفاعي!

كيف لا، والشيخ جلال الدين السيوطي له رسالة في الموضوع جملت عنوان: "الشرف المحتم فيما من الله به على وليه سيد أحمد الرفاعي"! –من تقبيل يد! النبي ﷺ".

وقد اختصم أبو بكر الصديق وفاطمة الزهراء وهما من أعز وأكرم الخلق على رسول الله ﷺ، في مسألة إرث فدك مانعا له إياها بحجة حديث يحفظه عن رسول الله ﷺ:

"نحن معاشر الأنبياء لا نورث"

فتمضي بعد أشهر لاحقة بأبيها وفي صدرها ما فيه على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ولا تظهر لهما مثل هذه المكرمة تزيل ما بينهما من وحشة، ويختص بمثلها، وعند الطلب، معاتيه وبهاليل من المتأخرين.

وكان لابد وأن يكون لمثل هذه المواجهة مع الغرب، الذي لم يهضمه الشيخ عبده ولا شيخه جمال الدين الأفغاني في العمق، حظ كبير من الشطط، لأنهما كلاهما لم يسلما من الدغل.

فذهب الشيخ عبده، وكرد فعل عل عقلانية عصر الحداثة الأوروبي الذي كان قد رفع العقل إلى مصاف الألوهية، أن جعل من العقل ندا للوحي حتى ذهب مرات عديدة كما في تفسيره لجزء (عم)، وكذلك تلميذه رشيد رضا في تفسير جزء (تبارك) وتابعهما الشيخ التونسي الطاهر بن عاشور صاحب تفسير "التحرير والتنوير" إلى وجوب تأويل "النص" ليوافق مفهوم العقل.

وهو مذهب خطير تلقفه عنه الأتباع وأتباع الأتباع إلى أن ظهر مؤخرا من يلغي السنة مطلقا بدعوى أنها أحاديث أحاد، كما عند صاحب "التحرير والتنوير" غير مفصح وعند القرآنيين المتأخرين من أمثال الشيوعي السوري محمد شحرور في كتابه "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة!" مجاهرا ومكابرا.

وهكذا، وبديناميكية الفعل ورد الفعل، حصل انحراف آخر في الجانب المقابل.

وأصبح العقل حرا طليقا من دون قيد.

عقل من؟

والمصيبة هي أنهم ألهوا العقل، في ذات الوقت الذي ذهلوا فيه عن بديهية كل العقول في كون العقل نسبي ولا يمكن أن يكون إلا كذلك!

هذا إن اتفقنا على ماذا نعني بالعقل.

أهو مجموع الخلايا العصبية؟ التي يتكون منها الدماغ أم عقل الشيء بمعنى تفهمه...إلخ.

وهكذا صال الإمام وجال بعقله وتبعه التلاميذ.

وتحولت الطير الأبابيل الواردة في القرآن الكريم بعقلانية الشيخ عبده إلى جراثيم جدري وحصباء! على خلاف ما فهم المخاطبون العرب من لغتهم وعلى خلاف ما يفهمه كل العقلاء!.

وسيذهب الشطط ببعضهم الآخر إلى نفى وجود الجن والشياطين الواردين في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما فعل خالد محمد خالد في كتاب "هذا أو الطوفان"

!

والعجب كل العجب من هؤلاء وهم يدعون الإسلام ومع ذلك يرفضون السنة أو حجية السنة! بينما الأوامر الربانية واضحة كل الوضوح.

ولا شك أنهم سيجدون إشكالاً في التوفيق بين إسلامهم ومسلمات عقولهم في فهم الكثير من النصوص.

فكيف يفهمون:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتفكرون﴾[1].

وأين سيجدون هذا التبيين للناس، إن لم يكن في حديث رسول الله ﷺ؟.

وكيف يفسرون قوله تعالى:

﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوه﴾[2].

أو في قوله:

﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[3].

أو في قوله:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[4].

وكان أحسنهم طريقة يقول: إنما نكتفي بالسنة العملية من صلاة وصيام وزكاة!

بل وجدت منهم من يجهل كيف وصلنا العلم وكيف اهتم بجمعه الآلاف المؤلفة من خيار المسلمين وعدولهم ليتحامل عليهم بجهله معلنا حربه الدون كيخوتية على طواحين هواء عقله.

وهؤلاء كفانا عادة جهلهم للتعرض لمثلهم عملا بقول الله تعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾[5].

وقد استعلن الكثير من الناعقين الذين انحدروا إلينا بخط موصول إلى الشيخ محمد عبده، كرسوا حياتهم للتشكيك في مصداقية السنة وإثارة إشكالات أثيرت من طرف فرقة المعتزلة منذ القرن الثالث الهجري.

---

[1]) سورة النحل، الآية: 44.

[2]) سورة الحشر، الآية: 7.

[3]) سورة النور، الآية: 63.

[4]) سورة النساء، الآية: 65.

[5]) سورة الأعراف، الآية: 199.

وكلها إشكالات كان قد تجشم الإجابة والرد عليها، ومنذ ذلك الزمن الغابر: ابن قتيبة[1] و الطحاوي[2] في مؤلفيهما.

وقد تترس بإزاء هؤلاء المتشككين في عصرنا، فريقا آخر ظاهره التسنن، إلا أن قلة الباع في الحديث جعلتهم يقعون في أخطاء ومزالق لا أول لها ولا آخر!

1) صحوة أم غفوة: الجيل الثالث من العبدويين:

كنا قد عالجنا في مؤلف مستقل حمل عنوان: "العبدوية والتحضين الاستشراقي للفيروسات الثقافية: طه حسين نموذجا"

، موقف الشيخ محمد عبده من حديث رسول الله ﷺ بما فيه كفاية.

وهو خط غلب على مصر وعلى بعض البلاد الإسلامية الأخرى التي تأثرت به ومنها المغرب.

1-1) شنشنة الشيخ محمد الغزالي السقا: القرآن وحده!

عرف الشيخ محمد الغزالي رحمه الله بزاوية كان يكتبها في صحف ومجلات مختلفة تحمل عنوان "الحق المر"، والحق مفروض أن يكون طعمه حلوا، ما دام هو حق!

والظاهر أن الناس إنما ترشح عادة وتلقائيا بما يشغل ذهنها هي بالذات فيأتي المقال وكأنه تفسير للحال وإن لم يقصده صاحبه!

---

[1]) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد (213-276هـ)، من المصنفين المكثرين، وكتابه: "تأويل مختلف الحديث".

[2]) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي (239-321هـ)، رئيس الأحناف بمصر في زمنه وله كتاب: "مشكل الآثار".

وقد أصدر الشيخ أكثر من ثمانين كتابا، منها ما أعيد طبعه عدة ومرات حتى أن بعضها بلغ الرقم العشرون. ومنها ما وجدت طريقها إلى الترجمة في عدة لغات أجنبية.

هذا ما للرجل أما ما عليه، وهو الذي يهمنا التنبيه عليه هنا، هو أن الشيخ الغزالي كالشيخ عبده قبله كان لا يقيم للسنة وزنا ولا اعتبارا، لا يختلف في شيئ عن الشيخ محمد عبده نفسه، بل زاد عليه أنه كان يصر على ذلك ولا يرجع.

وهي زلة من العالم ما بعدها زلة، فما بالك إن كان داعية؟

ولم يكن الشيخ الغزالي السقا، منظراً من الوزن الثقيل كسميه أبي حامد الغزالي، ولا محققاً من النوع الذي يضاهي بعض أئمة التقليد. وإنما كما قيل، إنما الناس على قدر أزمانهم!

ولولا واجب التنبيه على بعض زلاته لما عرضت له رحمه الله، لهذا السبب بالذات ولغيره، ولكن درءا للاغترار، لمن يقرأ له دون علمه بهذه الخلفيات، ودفعا لمفسدة في الدين يظن صاحبها أنها من حسن عمله!

فالشيخ الغزالي كان يرى أن أهل الحديث قد انتهى دورهم بتمام تدوين كتب السنة. ولم يتبقى لمحترفي تدريس الحديث المعاصرين سوى تحقيق كتب السنة التي لم تحقق من قبل، وإعادة التصنيف أخذا من الكتب المعتمدة، وليس لأحد الآن أن يصحح حديثا قد ضعف، ولا أن يضعف حديثا صحيحا، فقد كفينا هذا من قبل!

وهو عين ما عرف عن الشيخ عبده ومدرسته.

فهم عندما يقولون كتاب الله وسنة رسوله، فإنهم إنما يعنون القرآن وحده وهواهم، الذي يسمونه عقلا أو فقها، وهو سنتهم.

لذلك فمقابل هذا المحدث الوراق العاطل! هناك الفقيه، وهو يعد نفسه منهم! عملهم مستمر إلى يوم القيامة، وذلك من خلال إعمال للعقل! في الأدلة الشرعية لاستنباط الأحكام لكل مستجدات الحياة على اعتبار أن الشريعة الإسلامية حاكمة لكل زمان، ولكن بدون سنة!! لأنه كعبده كان يجهلها.

فهذه إذا مزية هذا الفقيه! الجاهل بتنزيل السنة، المشغل لعقله! بينما استقال المحدث وتقاعد ولا عقل له! أو حسب إحدى عباراته في معرض حديثه عن حديث مخرج في

الصحيحين[1] ويرويه عبد الله بن عمر وأبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري وعمر بن الخطاب عن مخاطبة الرسول ﷺلقتلى صناديد قريش في غزوة بدر.

وهو موضوع محسوم ومطروق عند أئمة المحدثين والفقهاء[2].

ومن أجل ذلك كان أئمة الفقه يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب يعتمد على القرآن أولا، فإذا وجدوا في ركام!!!!! المرويات ما يتسق معه قبلوه، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع.

وهذا قول من الشناعة بمكان حتى أن شيخه المؤثل لهذا النهج باعتماد القرآن دون السنة، وهو عبده، ما كان يستطيع أن يستعمل مثل هذه الألفاظ!

فالسنة، التبيان، عند الشيخ الغزالي السقا عبارة عن ركام!

ولا شك أن من كان هذا فهمه وهذا حظه من السنة، فانتظر منه شطحا على قدر عقله وجهله!

وهو لا ينسى أن يذكرنا في هذا المجال حيث يقول[3]:

يقول المرحوم[4] الإمام! محمد عبده: "القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته، أما ما عداه ورد في الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أم ضعف، فليس مما يوجب قطع...[5].

---

[1] أنظر البخاري في كتاب المغازي طبعة استنبول الباب 12 عن ابن شهاب الزهري موصولا لابن عمر وكتاب الجنائز الباب 87 عن نافع عن ابن عمر وكتاب المغازي الباب 8 عن أبي طلحة واعتراض عائشة أم المؤمنين في كتاب الجنائز الباب 87 من طريق عروة ابن الزبير. وهو عند مسلم في كتاب الجنة الحديث رقم 2874 عن أنس بن مالك من طريق ثابت البناني وعن أبي طلحة من طريق أنس بن مالك. والنسائي وأحمد من عدة طرق. وغيرهم.

[2] محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ط. 6، دار الشرق، مصر، ص: 27.

[3] محمد الغزالي السقا، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل!!!!!، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية، المعرفة (8)، ص: 177.

[4] فما دام الرجل مرحوما، فقد حرموه أن يترحم عليه أحد، وما درى أن هذه ترجمة دخيلة!.

[5] ربيع بن هادي المدخلي، كشف موقف الغزالي من السنة وأهلها ونقد بعض آرائه، طبع دار الجيل، الطبعة الثالثة، 1414هـ/1994م.

وانظر تقريض كتالبه: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث من طرف صبحي محمود عميرة بعد أن انتقد فيه ونشرته مجلة "المسلم المعاصر" في عدد 63، رجب 1412هـ/فبراير 1992 صفحة وزتعقيبه على ذلك صفحة 195 حيث يحوم حول نفس التراهات!

أقول: فلا عجب في رجب!

ولا يخفى أن الشيخ كان يرأس المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة.

وقد صدر الكتاب في طبعته الثالثة سنة 1414هـ/1994م. وأعاد فيه نفس الكلام. بل وجدناه يثير كل تلك الأحاديث التي كانت قد أثيرت أيام ابن قتيبة في القرن الثالث الهجري من طرف المعتزلة، التي يعرف الشيخ عبده أنه من ممثليها المعاصرين، العقلانيين جدا!!.

فالغزالي أيضا كان ولعاً بإثارة حديث الذباب، وحديث فقأ موسى عين ملك الموت وحديث الصورة وأحاديث القضاء والجبر وغيرها بدون تحقيق أو تمحيص.

وهو كثيرا ما كان يأتي بحديث ولا يشير إلى مظانه وإنما يلتقطه التقاطا إن وافق هوى لديه، سواء أكان صحيحا أم ضعيفا، ويرد الصحاح بعقله! إذا لم يماشي هواه!. ووجدناه يطعن في أحاديث مخرجة في الصحاح قتلها المتقدمون درسا، من أجل البلبلة والتشكيك في المصدر الثاني للإسلام، مع أن السنة لها منهج نقدي واضح.

وقد روى حديثا للطبراني في هذه السلسلة المفروض أنها تؤسلم المعرفة وتجمع ضمنها "تراثيين كثر" إلا أنهم كان يجمعهم جميعا هم واحد "خلو الوفاض من حديث رسول الله ﷺ.

فقد أورد حديث لأعرابي وقال: رواه الطبراني. وفي الحاشية كتب: رواه الطبراني. أين رواه الطبراني وما درجة الحديث؟

هذا ليس هما للغزالي رحمه الله ولا للوراقين الذين طبعوا كتابه لثلاث مرات، دون أن يثير ذلك فضولهم. وقس على هذا.

وانظر الرواية في صفحة 102. وهو في مجمع الزوائد للهيثمي (10: 160-161) وقال الهيثمي معلقاً: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد، أبو عبد الرحمن وهو ثقة. وعلق الغزالي بعد إيراد حديثه الذي لم يعرف بحاله:

ولو سمعها بعض الأجلاف!!! لقال هذه بدعة! كما يصف بالابتداع بدء التلاوة باسم الله، وختمها بتصديق الله!

والأجلاف عند الغزالي هم بدون شك أهل السنة، فهو يعرض لهم ويعرض بهم، وهم بكل تأكيد وعلى جلفيتهم أقرب إلى الإسلام الصحيح وإلى فهمه منه أضعافا مضاعفة، لأنهم لم يضعوا بينهم وبين مصدري الإسلام: القرآن والسنة حجاب!.

لذلك لن أسترسل في تتبع الغزالي غفر الله لنا وله، وقد أفضى إلى ما قدم، لأنه لم يكن من أهل التحقيق حتى يقارع بالحجج، ولا هو ممن يثبت على قول حتى نميز صحيح قوله من سقيمه. وأحيل القارئ الكريم على كتاب ربيع بن هادي المدخلي: " كشف موقف الغزالي من السنة وأهلها ونقد بعض آرائه" وكتاب: " حوار هادئ مع محمد الغزالي " للشيخ سلمان العودة ، وقد تتبعا فيه بعض أخطائه حتى يكون الداعية على بينة منها.

وقد رد على هذين الكتابين بما لا يشفي الدكتور أحمد حجازي السقا بكتاب حمل عنوان: " دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي "

والمهم في شخص الغزالي رحمه الله هو أنه كان يمثل الجيل الثالث، بل والثاني كذلك لتطاول العمر به، للمدرسة العبدوية التي لا تؤمن سوى بالقرآن وحده، حسب زعمها، وبعقولها الخاوية! كسنة مبينة.

لذلك فالشطح في هذه الأجيال الثلاثة كان شائعاً.

انتهى وتليه الحلقة الثانية

ثقوب في نصف الدين: الشيخ القرضاوي والديمقراطية المهبهبة في بئى جهنم.